عمى حسـ ـن

رحماك اللهم ! ماذا فعلت؟ ... أين جلدى وأين رشادى؟... وكيف أستمع لنجوى هذا الرأس الكبير الذى ظل – ستة وأربعين عاماً – ملتقى لتجارب الحياة , يحتفظ منها بما يشاء ويعتبر بما يشاء؟! ... فهل حقاً خاننى البصر وهل حقاً خانتنى الإرادة؟... أز أن عمق إحساسى بالخجل والخيبة هو الذى كبر الهفوة لناظرى وضاعف من أثرها شعورى ؟ ... والحق أنى لم آت أمراً أشذ به عن سنة الطبيعة , بل لو كنت ذا فطنو لأيقنت من زمن طويل أنه مامن هذا المصير مفر ... ألم ألق بنفسى فى مرتع الحسن الصبيح والشباب النضير أشهد نضجه واستواءه ؟ ... فمن أين كانت لى قوة أصد بها نزوع القلب عن أن يجنى من حصاد الهوى ما يروي به غلة فؤاد أضناه الترمل وعناه التوقإلى الأليف

وقد عرفت ((فيفي)) وهى فى المهد بعد أن نورت الدنيا بأسبوع واحد , وكنت فى ذاك الوقت فى الثلاثين وأنتظر مولوداً أيضاً .

وأذكر أنى كنت أوصى زوجى – ضاحكاً - أن تكثر النظر إلى وجة طفلة جيراننا عل مولودنا النتظر يقبس من ورائها حسناً . ولم يكن يفصل بين الشقتين سوى ردهة قصيرة فجعلت الصغيرة – حين دعاها الداعى إلى تعلم الحبو والمشى – تقطعها حبواً ومشياً , فنمت رويداً رويداً تحت سمعى وبصرى , لها منتهى ودى وحبى وحنانى , بل لكأنها ما كانت تتحرك وتنمو إلا بالحرارة التى يسكبها حبى على قلبها الصغير. وزاد هذا بى وتضاعف حين إبتلانى الدهر فسلبنى زوجى ثن إبنى الصغير , فعلقتها بجنون ووجدت فيها سلوة وعزاء. وأحبتها أختى – وكانت تقيم معى – فصرنا لها أباً وأماً . كان حسبى أن أنظر فى عينها الخضراوين أو أعابث شعرها الكستنائى أو ألبى نداءها فرحاً مسروراً إذا نادت ((عمى حسن)) وكان أبوها يضاحكنى فيقول ((ما عرفت كفيفى طفلة تحب عمها أمثر من أبيها!))

فيفى الصغيرة تلك هى التى أحببت فيما بعد حباً غير الحب الأبوى الأول. وإنى لأتساءل متحيراً متى أحببتها هذا الحب الجديد؟ أو كيف تحول حنانى إلى عاطفة قوية وشغف جنونى وهيام حق؟ .. هل تولد فجأة ذاك اليوم الرهيب الذى لا ينسى؟ هذا بعيد. ففى مثل حالتى لا يأتى الحب فجأة ؛ بل كيف أقول فجأة وقد ترعرعت عمرها السعيد البالغ ستة عشر عاماً بين يدى وفى متناول أنفاسى ! إنما يمكن أن يقال إن بذرته ذرت فى فؤادى منذ إستوى العود

الغض وإرتوى بماء الشباب , وإمتلأ الصدر والخدان بلأنوثة , وومض فى العينين بريق الفتنة والملاحة , فلم أعد أرى طفلة تلثغ بإسمى أو تلهو بسلسلة ساعتى , ولكن شابه حسناء ريا الشباب ناضرة الحسن تنفث والهيام. هنالك بهرنى الحسن وملأنى الإعجاب . وكنت كلما دب دبيب الفتنة فى قلبى تعوذت بالله وأنكرت مشاعرى . ثم جفلت من مداعبتها , فلم أعد أريت على خدها أو أعابث ذؤاباتها , وهمت فى أجواء من الغموض واللهفة والشوق المكتوم والحيرة القاتلة والشغف والخوف , ولولا أنى ممن يندر أن يفكروا فى أنفسهم أو يتظروا فى باطنهم لفطنت إلى حالى , ولكنى رحت أقنع نفسى بأن ما إنتابنى من اضطراب ما هو إلا أثر من إعجابى بالأنوثة الناضجة يتجد فى قلبى بحبى الطاهر القديم . هكذا خادعت نفسى . على أنى لم ألبث ان صحت يوماً وقد بلغت بى الوحشة حد الجنون – وكانت غابت إسبوعاً فى بيت جدهل – ((رباه إن الحياة لا طعم لها بدون فيفي وإعترانى شجن وكمد ووجوم

وجاء يوم فرأيت قلبى على ضوء الشمس الساطع ويرح الخفاء , وكنت أعبر فناء البيت إلى الطريق , وكانت فيفي تلهو كمحبوب عادتها بركوب الدراجة فى الفناء . فلما رأتنى مقبلا إتجهت نحوى بدراجتها فى رشاقة حتى صارت على بهد أذرع منى ثم رفعت يمناها تحيينى , فأختل توازنها , وإضطربت بها الدراجة فهرعت نحوها حتى حاذيتها , فاعتمدت بيسراها على كتفى الايسر متفاديه السقوط , ونظرت إليها مؤنباً فطالعتنى بعينين ضاحكتين , وقد شدت راحتها على كتفى وإنغرست ركبتها فى قلبى ولم أسترد نظرتى فأدمت إليها النظر وقد لانت أساريرى . ثم ما لبثت أن ابتلعنى تيار عارم من الوجد والهيام فوددت بكل ما أوتيت من قوة وشغف لو ضممتها إلى قلبى . وجعل هذا القلب ينتفض كان ركبتها مفتاح كهربائى يسلط على شعافه تياراً عنفياً .

هكذا انقطع الشك ويرح الخفاء. وبعد لحظات كنت ماضياً فى طريقى وقد انشغلت عن الدنيا جميعاً , فلم اعد أشعر إلا بنفسى التى نبضت بحياة جديدة كدوامة ثائرة فأثملنى طرب دفين , ولكن لم يزالني شعور بالتبعة والخوف والحزن . وجعلت أتساءل ((إلى أين تمضى بى يا قلبى ؟)) نعم إلى أين ؟ ... فهذا طريق غير مأمون العثار , فأين منى خطى الشباب وقلوب الفتيان ؟ ... وهل أنا إلا ((عم حسن)) فماذا يقول والداها العزيزان لو علما بما جد فى قلبى ؟ ... كيف يريان جارهما الرزينالوقور وقد إنقلب عاشقا ولهان ؟ ... بل مالى أثقل على قلبى بالتردد والمخاوف , فلأقل مع قلبى إن هذا الحب شئ طبيعى لا غرابة فيه , وإنه لن يكون الأول أو الأخير من نوعه ؛ بل سأفرض أن جارى العزيز بارك بعطفه ما يختلج فى صدرى , فكيف لى بعد ذلك أن أحولها من إبنة إلى زوجة ! وكيف أجعلها تنظر إلى عمها حسن فترى فيه حبيبها حسن ؟ وضاق صدرى وإلتهب جبينى وذكرت الصلعة اللامعة التى

أتوج بها هامتى , والشيب الذى يحرق فؤادى وثلاث أسنان قد قلعت , وسنة جديدة قد نغضت , فأكملت مسيرى ممتلئاً شجناً وكآبة. ولكن هل ارعويت ؟ ... كلا ... ففى اليوم الثانى جاءتنا إلى البيت خفيفة نشيطة كعادتها – وكانت أختى تصلى العصر- فأقبلت نحوى وجلست إلى جانبى يتألق ثغرها بالابتسام , فأحدث مجيئها شفاء لما كنت أكابد من أوجاع وأمر . وجدتنا منفردين فخلت أنى أنفرد بها لأول مرة , وداخلنى إضطراب وقلق وهيام . ولم تكن أول مرة تخلو إلى وأخلو بها , ولكن أجدت لى الخلوة هذه المرة شعوراً لا عهد لى به , ووجدت فى أعماق نفسى حسيس أمنية يهمس لى لو تخلو لنا الدنيا كما تخلو هذه الحجرة !... لو تخلو فلا أخت ولا لأب ولا أم ولا مخلوق سواها وسواى. هنالك تؤاتنى شجاعتى وتنجاب عنى الوساوس وتنحسرعن ناظرى غشاوة القنوط ... فمن لى بأن أطير بها إلى تلك الدنيا المقفرة؟ ... وحولت إليها عينى فرأيت المرح والبراءة , فثبتهما على وجهها المحبوب. وما كان أسعدنى رجلاً فى تلك اللحظة لو جثوت –أنا والاعوام التى أحملها على عاتقى – عند قدميها الصغيرتين ماذا راحة راغب ضارع ... وشعرت بتحديق عينى فرشقتهما بنظرة صافية حتى أحسست الأرض تميد بى , وتعمدت ما وسعتنى الحيلة أن أجعل لنظرتى معنى جديداً غير ما عهدت , وأن أحمل عينى رسالة من أعماق الفؤاد لأجذبها من عالمها البرئ إلى دنيا آمالى وأحلامى . ولكن هل أدركت شيئاً ؟ ... هل بلغت الرسالة؟ ... أما لو كان ذلك كذلك لتولاها الارتباك وخضبها الخجل ... فهل تعثرت فى الارتباك أو غض من طرفها الحياة؟ اختلط على عيني الأبصار والتوهم واصطرع فى مجال إحساسى قوى الإدراك ونوازع الأمل . وعطفت رأسها عنى برشاقتها الحلوة فاستقر بصرى على خدها الوردى . وفى نشوتى وهيامى تجمعت وثبة الحياة الجارية فى كيانى فى رغبة واحدة لا تقاوم أن ألثم هذا الخد . وهوى عنقى نحوها فى ذهول الوجد فلثمتها والتفتت نحوى كالفزعة. ثم ضحكت ضحكة عالية ملأ رنينها أذنى ومشاعرى جميعاً؛ ثم طوقت عنقى بذراعيها وقبلتنى فى خدى هل نلت المراد ؟ . رباه ! كانت قبلة أقشعر لسريان برودتها جسدى , فجمد دمى فى عروقى , وسكت قلبى عن الخفقان واحترق وجهى خجلاً . وكانت الطفلة المرحة البرئية تقبل عمها حسن , وكان مثلى كمثل مجنون عاد إليه رشاده فجأة فوجد نفسه متجرداً وسط قوم عقلاء . الا ما بعد الشقة بين الافعال والنيات ألم تلتفت إلى فى رشاقة الغزلان ؟ ألم تطوق عنقى بذراعيها؟ ألم تطبع على خدى قبلة ؟ ولكن أين من هذا كله الحب والولع؟ وشق على الخجل وشقت على الخيبة , وبينما راحت هى وكأنها نسيت كل شئ , تروى لى ما شاهدت فى السينما أمس , جعلت أحادث نفسى : رحماك اللهم ! ماذا فعلت؟ ... أين جلدى وأين رشادى؟ وتساءلت محزوناً : الايجمل بى أن اشد الرحال الى بيت غير هذا البيت وحى غير هذا الحى؟!